اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح١٩ | الآيات [١٢١ : ١٢٤]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصّلاة والسّلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نستكمل بإذن الله -عزّ وجلّ- تفسير سورة الأنعام. نتناول في هذا المجلس تفسير الايات التالية: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}[الأنعام ١٢٣-١٢٤]

كنّا قد توقّفنا عند الآية (122) عند قوله -سبحانه وتعالى-: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام ١٢٢].أسأل الله -عزّ وجلّ- التّيسير والتّوفيق والسّداد.

نستحضر معًا الآيات السابقة؛

قال الله -سبحانه وتعالى-: هناك سُنَّة قَدَرِيَّة، هذه السُّنَّة ربنا -سبحانه وتعالى- يقول فيها {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا}[الأنعام ١١٢]، وجاءت هذه الآية {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا}[الفرقان ٣١] جاءت في الأنعام، وجاءت في الفرقان.

فقال -سبحانه وتعالى- في سورة الأنعام: {شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[الأنعام ١١٢]، وقال -سبحانه تعالى- في سورة الفرقان: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}[الفرقان ٣١]

فالسُّنَّة أنّ الله -عزّ وجلّ- يُقَدِّر العداوة، كما قدَّر الله -عزّ وجلّ- أن يخلق بني آدم وفيهم نزعة الشّهوات من الطّين. فقد قالت الملائكة: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}[البقرة ٣٠]، ولم يفهموا عظم الحكمة من هذا الأمر، لكنّهم يعلمون أنّ الله -عزّ وجلّ- **لا يفعل إلّا أمرًا حكيمًا** -سبحانه وتعالى- لذلك كانوا يستبينون ذلك، فبيّن الله لهم: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة ٣٠]. وأراهم الله سيّدنا آدم وهو يتعلّم الأسماء، ويعلّمهم الأسماء.

فأحيانًا لا يفهم الإنسان تقدير الله –عزّ وجلّ– في وجود الشيطان، وفي وجود أعداء يكون لهم طُرُق، ولذلك يُبيِّن ربنا –سبحانه وتعالى– الحِكَم والأقدار، ويظهر من ذلك عبادة الطائعين وبذل وجهاد المجاهدين في سبيل الله عزّ وجلّ.

إذًا القاعدة هي أنّ **لكلِّ نبيّ عدوًّا**؛ من هم ؟ {شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[الأنعام ١١٢]. ثم أخبرنا الله عن نموذجٍ من هذا الإيحاء وهذه الزخرفة...

فأول شيء يفعلونه دائمًا هو الطّعن في شرع الله، فيختارون حُكمًا من أحكام الله التشريعية ويحاولون إظهار أن فيه نقصًا في الحكمة؛ حتى يقنعوا أهل الإيمان بالزهد فيما معهم من الشرع، كما قلنا في تفسير قول الله –عز وجل– في سورة سبأ {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}[سبأ ٥].

قلنا إنّ أحد معاني قول الله –عز وجل– {مُعَاجِزِينَ}: أي يريدون أن يُظهروا أنّها عاجزة، "معاجِز" صيغة مفاعلة، مثل صابِروا؛ أيُّنا أكثر صبرًا؟

ف"مُعَاجِزِينَ": هو من يريد أن يثبت أن ما معك عاجز، وأن ما منَّ الله –عز وجل– عليك به من وحيٍ؛ به عجز عن مسايرة الواقع وتطبيق الأحكام في الواقع، فينتقي حُكمًا ويطعن فيه، وإذا نقض حكمًا، سينقض بقية الأحكام.

وجاء بنموذج كيف يقع بعض ضعاف الإيمان في ذلك، وبيَّن الله –عز وجل–ذلك، وردّ عليهم.

ثم يقول الله –عز وجل– تعقيبًا على ذلك {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[الأنعام ١٢٢] فالله منَّ عليكم يا أهل الإيمان وأعطاكم نورًا، بينما هم أموات في الظلمات، ثم تسمعون لهم!

هل يُعقل أن شخصًا منَّ الله –عز وجل– عليه بالنور والهدى والحياة، وأعطاه وألبسه العافية، ثم هو يذهب بنفسه ليسمع من أفكار أهل الشرك والفساد والبغي!

هذا الذي يترك ما معه من القرآن والوحي ويتجه -سواء إلى الشرق أو الغرب- ليستجلب أفكارًا كلية تصادم أفكار الشريعة. وقد ذكرنا قبل ذلك أن الإنسان يمكن أن يستفيد من الخبرات الحياتية الإجتماعية من أي إنسان، حتى لو كان كافرًا، بل حتى من الشيطان، ما لم تصادم شرعًا.

ولكن شخص يستورد أصولًا كُلّيّة في الحياة ويأخذ أفكارًا تصادم شرع الله -عزّ وجلّ-!؛ فهو يذهب للأموات يستجلب منهم ما يُحييه، يذهب للظلمات ليستجلب منهم نورًا، كيف يعقل هذا؟!

فالله -عز وجل- يقول: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] فقد كنتم في الجاهلية، وتعلمون جيدًا كيف كان وضعكم في الجاهلية، ثم أحياكم الله بإرسال الوحي إليكم.

ولو أننا وقفنا مع كل حرف في القرآن نجد إعجازًا.

أولًا: بدأت الآية باستفهام استنكاري - ونذكر معلومة هنا في آية {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] هناك فارق دائمًا في القرآن بين أن يدخل حرف الاستفهام على جملة مباشرةً وبين أن يدخل على جملة تبدأ بحرف عطف- فهناك فارق بين "أمن كان ميتًا"وبين {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] ، وهناك فارق بين "أتطمعون أن يؤمنوا لكم" وبين {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ}[البقرة ٧٥]، وهناك فارق بين "ألم" وبين {أَوَلَمْ}[1].

الواو أو الفاء؛ حرف عطف. "أمن كان ميتًا" هذا أصل الجملة، ثم أضيفت الواو فأصبحت {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] ، والواو حرف عطف. وهنا لأهل التفسير اتجاهان في تفسير هذه الآية أو أي آية على هذه الشاكلة؛ وهذه قاعدة؛ أي آية يدخل عليها حرف استفهام يليه حرف عطف مثل قوله تعالى {أَفَتَطْمَعُونَ}[البقرة ٧٥]، {أَوَلَمْ}، {أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ}[يونس ٥١]، أي حرف من حروف العطف ثم، أو الفاء، أو الواو، إذا دخل عليها الاستفهام فهناك وجهان في تفسيرها؛ إذا دخل حرف الاستفهام على جملة أولها حرف عطف، الكثير من المفسرين يقول: "حرف العطف أصله أن يكون قبل حرف الاستفهام"، فأصل الآية: "وأمن كان ميتًا"، كما الآية السابقة {وَلَا تَأْكُلُوا}[الأنعام ١٢١]، والآية اللاحقة {وَكَذَٰلِكَ}[الأنعام ١٢٣]، ثم الآية التي تليها {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ}[الأنعام ١٢٤]، كلها بُدئت بواو عطف. فكأن هذه الآية كانت تبدأ بواو عطف عادية كالآية السابقة واللاحقة، لكن حرف

[1] ذكرت "أولم" في ٣٥ موضع في القران منها [البقرة ٢٧٠][ال عمران ١٦٥][الأعراف ١٠٠][الأعراف ١٨٤][الأعراف ١٨٥][الرعد ٤١][ابراهيم ٤٤] [الحجر ٧٠] [النحل ٤٨] [الاسراء ٩٩] ..

الاستفهام يجب أن يأتي أولًا لأنه من حروف الصّدارة، فهناك حروف لا ينبغي أن يأتي قبلها أي شيء، وتأتي في الصدارة، ومنها: حرف الاستفهام. فقُدِّم حرف الاستفهام على حرف العطف؛ فحدث تبديل، كان أصل الكلام "وأمن كان ميتًا"، ولذلك يقولون إنه حرف عطف يعطف الجملة، ويبحثون عن الجملة المعطوف عليها، فقال بعضهم: إن جملة {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}[الأنعام ١٢٢] معطوفة على جملة {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا}[الأنعام ١١٢]. أي؛ كما جعل الله -سبحانه- لكل نبي عدوًّا، فكيف تتجّهون إلى الأعداء وتأخذون منهم النّور؟! فالله -سبحانه- يقول: أنا جعلت لكل نبي عدوًّا، فتترك أنت النبي وتذهب للعدو لتأخذ منه النور! تترك النور الذي مع النبي وتذهب للعدو!!!

وقال البعض الآخر؛ وهم قلة، لكن منهم المحققين والإمام الزمخشري وغيره من المتأخرين: ليس هذا هو المعنى الصحيح لحرف الاستفهام الذي يدخل على حرف عطف.

فمعنى الآية "أ" الهمزة استفهامية، وهناك جملة محذوفة، ثم تأتي الواو حرف عطف لتعطف جملة "مَنْ كَانَ مَيْتًا" على الجملة المحذوفة. فبعض المفسرين قال -وهذا يحتاج إلى فطنة وذكاء من المفسر ليستنبط ما هي الجملة المحذوفة-: قالوا الجملة المحذوفة تقديرها: "أتصدقونهم وتستضيئون منهم، والحال هو أنّ مَن كان ميتًا فأحييناه لايشبه من يعيش في الظلام" فبين الألف والواو هناك جملة محذوفة، والجملة الظاهرة "من كان ميتا" معطوفة على الجملة المحذوفة. ف

كان أصل الآية: "أتصدقونهم وتلجؤون إليهم وتستضيئون منهم والحال أنَّ مَن كان ميتًا ليس كمن كان حيًا، وأنتم أحياء وهم الأموات، فكيف تستضيئون منهم؟!" فهذا استفهام يستنكر، ويُحذف كأنَّ الله لم يذكره من شدَّة وضوحه؛ فمن شدَّة وضوح كلمة "أتصدِّقونهم" أو "تستضيئون منهم" لم يذكرها الله.

الشاهد؛ {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] ، نحتاج إلى وقفة مع هذه الآية.

لم يقل الله -عزّ وجلّ- "أومن مات كمن كان حيًا"، ولم يقل "من يموت"، بل قال: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}[الأنعام ١٢٢] . عندما تأتي {كَانَ} وبعدها الاسم {مَيْتًا} فهذا يعني رسوخًا أشد في الصفة. وقِس على ذلك: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}[النساء ٢٣]، أي؛ مغفرة الله -عز وجل- ثابتة لا تتغير. وعندما نقول إنَّ فلانًا كان كريمًا، معناه أنّ الكرم جزء من كينونته لا ينفصل عنه. وهذه تختلف عن "كان" التي تأتي بمعنى؛ كان ثم أصبح بخيلًا، لا؛ "كان" هنا تعني أن الصفة جزء منهم، مثل قوله تعالى:{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}[الزخرف ٥٤] المقصود إن الفسق أصبح

جزءًا من تركيبة المجتمع، فوَجَب أن يهلكوا. فـ{كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] أي أنه ميت مترسِّخ في الموت، ولا أمل في حياته.

الذي يدرس وضع الجاهلية قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- يظن أنه يستحيل لهؤلاء الناس أن يُكوِّنوا حضارة، ويستحيل أن يغلبوا فارس والروم، فهؤلاء الذين كانوا يقتلون بعضهم من أجل جَمل يستحيل أن يجتمعوا، ولو نظرنا إلى حالنا الآن مع بعضنا، والقتل المنتشر، قد نقول: يستحيل أن يكون هؤلاء أمة واحدة أبدًا، فيقول الله سبحانه: لقد كنتم في وضع يستحيل أن تقوموا منه قبل الوحي؛ فقد كنتم في وضع راسخ في الموت، راسخ في الظلمات.

وقد شبَّهت الآية من هو بعيد عن الوحي بصفتين هما؛ **الموات والظلمة**، وعكسهما المرتبط بالوحي؛ الحياة والنور. دائمًا هذان الوصفان عندما يجتمعان يشيران إلى أنّ هذه الحياة ليست أي حياة إنما هي الحياة الصحيحة.

أحدهما يُبصر ويتحرك، والثاني في ظلمة وهو ميِّت، حتى لو استيقظ الميّت فإنه لا يقدر على الحركة لأنه ميّت في الظلمات.

والآية بدأت بالميِّت وختمت بالظلمات: {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ}[الأنعام ١٢٢] أي في الظلمات ميِّتًا.

ما دلالة أن الأول ميِّت في الظلام والثاني حيٌّ في نور؟ لأنه من الممكن أن تكون حيًا لكنك لا تستطيع الحركة، لا تعرف هل عليك أن تتّجه يمينًا أو شمالًا؟ فالوحي يُشبَّه دائمًا بالحياة، ويُشبَّه أيضًا بالماء لأنه يعطيك الحياة الصحيحة، فهذان التشبيهان متكاملان.

إذًا؛ {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا}[الأنعام ١٢٢] هذا رسوخ الجاهلية قبل الوحي. فنحن من غير وحي نضيع، وعندما نبتعد عن الوحي فإننا نرسخ في الموت مثل الحَيْران، {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}[الأنعام ١٢٢] إذًا؛ أولًا جاءته الحياة، ثم بعد ذلك بدأ يأتيه النور؛ {فَأَحْيَيْنَاهُ}[الأنعام ١٢٢] ونثبت هذا لله -عز وجل-، لأن الأمة لن تستقيم ولن تحيا إلا بنور من الله -عز وجل-، فأيُّ وسيلة لتجميع الأمة بعيدة عن وحي الله -عز وجل- يستحيل أن تقوم.

{فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ}[الأنعام ١٢٢] لفظ "الجعل" ورد مرات كثيرة جدًا في السورة، {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا}[الأنعام ١١٢] {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣] كما جعل ربنا الأعداء وجعل أكابر المجرمين، جعل لنا نورًا ووحيًا؛ فلا تقل: لِمَ جعل الله مكرًا؟ فقد جعل لك أيضًا نورًا تقاوم به هذا المكر.

لذلك لما قال ربنا –سبحانه وبحمده– : {جَعَلْنَا لَهُ نُورًا}[الأنعام ١٢٢] قال بعدها: {جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣] لماذا؟ ليمكروا، هذا النور هو الذي يكشف مكرهم، لن يظهر مكر المجرمين للناس إلا بنور القرآن –وهذه قاعدة مهمة– ((لن يظهر مكر المجرمين للناس ولن يتضح أن هؤلاء مجرمون فَجَرة **إلا عندما تعرض على الناس القرآن**)).

أغلب الوسائل الأخرى من الممكن أن تصوِّره مرةً مجرمًا ومرةً أخرى بطلًا إذا استعملت وسائل سياسية فقط أو اقتصادية فقط أو أفكارًا ومفاهيم بشرية... فإذا استعملت هذه المفاهيم البشرية المتقلّبة وغير الثابتة قد ينقلب المجرم إلى بطل؛ ولهذا يصرُّ الغرب على أن تظلَّ هذه المعايير نسبيّة؛ فإذا حدث ووجدت مجرمًا وأخبرت الناس أنّ هذا الشخص مجرم، فهنا عليك أن تُظهِر سبب إجرامه من معايير وضعها الوحي وما هي أوامر الله –عز وجل– التي خالفها ليصبح مجرمًا، لأنك إذا لم تُظهر هذه الأسباب واستبدلتها بأسباب ومعايير متغيرة وضعها البشر قد ينقلب هذا المجرم ليصبح بطلًا بعد مرور الزمن بسبب هذه المعايير التي وضعتها. وبالتالي عليك الالتزام **بالمعايير الثابتة** التي وضعها الوحي لأنك لو أظهرت للناس أنه مجرم بسبب المعايير التي وضعها الوحي سيظل مجرمًا إلى أن يتوب.

{فَأَحْيَيْنَاهُ}[الأنعام ١٢٢] عندما يحيا المؤمن بالوحي لا يستطيع أن يصمت، فبمجرد أن أحياه ماذا فعل؟ {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي}[الأنعام ١٢٢] اكتفاء؛ لذلك تعلُّم القرآن دون الخروج للناس هو فهم ناقص للدين، الذي يفهم القرآن بشكل صحيح لا يستطيع أن يصمت؛ مثل سيدنا إبراهيم عندما قال: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[الأنعام ٧٩] مباشرة ذهب يكلمهم {قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ}[الأنعام ٨٠] وحاجَّهم.

عندما تكتسب نور القرآن يعطيك طاقة تتحرك بها في الناس {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي}[الأنعام ١٢٢] هذه ترعبهم وتزلزلهم، {نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[الأنعام ١٢٢] هذه تدمرهم.

ربنا –سبحانه وبحمده– طوال السورة ذكر المكر والكيد والتلبيس على الناس ومحاولات عديدة، والمتبوعون والسادة يتحركون، وزخرف القول والإيحاء، لكن الكبار لم يتحركوا إلا عندما تحرك أهل الإيمان في الواقع. وكذلك الآية التي بعدها مباشرة {جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣] الأكابر لم ينزلوا ليقودوا بأنفسهم الخطة إلا عندما أصبح لأهل الإيمان نورًا يمشون به في الناس، إذا صِرْتَ نورًا يمشي في الناس هم سيُجَنُّون، وسينزل لك ولن يتركك. ((والمؤمن الحق عندما يستفيض قوة ونورًا من القرآن لا يستطيع أن يقف لا بدَّ أن يمشي)). وكلمة "يمشي" بصيغة المضارع مع فعل "يمشي" تدل على الليونة والسهولة في نشر الدين. إن نشر الدين ليس ضربة واحدة فقط ثم ننسحب، ليس أن تنزل وتصرخ في الناس ثم تغادر، بل هي حياة مستمرة وسط الناس، (كان قرآنا يمشي)[٢].

في سورة الفرقان متى صار هناك فرقان؟ {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}[الفرقان ٦٣] هم قالوا عنه في أول سورة الفرقان: أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، كانوا يرفضون أنه يمشي وسطهم، ما الذي يضرهم في كونه يمشي وسطهم؟ أنه ضيق عليهم الطريق؟ لا؛ بل لأنه ينقل النور للناس {جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي}[الأنعام ١٢٢] هل يترك النور في المسجد ويخرج لهم؟ هل يخلع عباءة الدين ويترك أخلاق الدين في المسجد؟؛ أي يعامل الناس بمعاملات خارج المسجد، ثم يرجع للمسجد فيلبس لباس الراهب ويتعبد؟! لا؛ بل يخرج {يَمْشِي بِهِ }[الأنعام ١٢٢] باء المصاحبة، أخذ القرآن الذي استفاده من المسجد والنور وخرج به للناس. لم يقل "يمشي في الناس" قال: {يَمْشِي بِهِ}[الأنعام ١٢٢] أي بالنور وبالوحي.

إذا فعل المؤمن هذا سيستفيضون نورًا، ويمشون وسط الناس ويعيشون حياة عادية جدًا ليس فيها تكلف، يذهب إلى عمله وهو إنسان ملتزم طبيعي، فالناس تُفاجأ هل يعقل أنّ شخصًا لا يأخذ رشوة؟ أهناك

---

[٢] [عن الزبير بن العوام:] صلى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصبحِ في مسجدِ المدينةِ فلما انصرف قال أيُكم يتبعُني إلى وفدِ الجنِّ الليلةَ فأسكت القومُ فلم يتكلمْ منهم أحدٌ قال ذلك ثلاثًا فمَرَّ بي يمشِي فأخذ بيدِي فجعلت أمشِي معَه حتى خَنَسَت عنا جبالُ المدينةِ كلُّها وأفضينا إلى أرضٍ بِرازٍ فإذا رجالٌ طوالٌ كأنهمُ الرماحُ مُستَذفِرِي ثيابَهم من بينِ أرجلِهم فلما رأيتُهم غشِيَتني رِعدةٌ شديدةٌ حتى ما تُمسكُني رجلاي من الفَرَقِ فلما دنونا منهم خطَّ لي رسولُ اللهِ بإبهامِ رجلِه في الأرضِ خطًّا فقال لي اقعُدْ في وَسَطِه فلما جلست ذهب عنِّي كلُّ شيءٍ كنتُ أجدُه من ريبةٍ ومضى النبيُّ ﷺ بيني وبينَهم فتلا قرآنًا رفيعًا حتى طلع الفجرُ ثم أقبل حتى مرَّ بي فقال لي الحقْ فجعلت أمشِي معَه فمضينا غيرَ بعيدٍ فقال لي التفتْ فانظرْ هل ترى حيثُ كان أولئكَ من أحدٍ قلت يا رسولَ اللهِ أرى سوادًا كثيرًا فخَفَّض رسولُ اللهِ ﷺ رأسَه إلى الأرضِ فنظَّم عظمًا بروثةٍ ثم رمى به إليهم ثم قال رُشدُ أولئك منِّي وفدُ قومٍ هم وفدُ نَصيبينَ سألوني الزادَ فجعلت لهم كلَّ عظمٍ وروثةٍ قال الزبيرُ فلا يحلُّ لأحدٍ أن يستنجِيَ بعظمٍ ولا روثةٍ أبدًا

الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ٢١٤/١ • إسناده حسن • أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٩٥)، والشاشي في «المسند» (٥٣)، والطبراني (١٢٥/١) (٢٥١) واللفظ له

أحد لا يكذب؟ هل يوجد شخص متقن هكذا؟ أيعقل أنه لا يغتاب الناس؟ يبدؤون بالتساؤل!. وكما ذكرنا من قبل؛ تصل إلى أنهم يُودعون الأمانات عند النبي -صلى الله عليه وسلم- ويذهبون ليقتلوه! الأشخاص الذين ذهبوا لقتله أودعوا عنده الأمانات ويعترفون أنه صادق أمين، لآخر لحظة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يترك سيدنا عليًّا -رضي الله عنه- مكانه كي يردّ الأمانات!.

يعترفون بأنّه صادق لكن يقولون لن نقبله، هذه مرحلة فرقان لن تحدث إلا عندما يوجد نور {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا}[الأنعام ١٢٢] الحياة وحدها ليست كافية، مرحلة الاستيقاظ من الغفلة وحدها ليست كافية، لكن تمام الأمر: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي}[الأنعام ١٢٢] لذلك النور الذي لا يجعلك تمشي وسط الناس هو نور ناقص، العلم والدّين اللذان تكتسبهما ولا يعطيانك طاقة تمشي بها في الناس وتنقل بها الدّين، هذا نقص لديك، هذا فهم ناقص للدين.

{وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ}[الأنعام ١٢٢] انتبه لكلمة {فِي النَّاسِ}[الأنعام ١٢٢] أي اختراق الناس، داخل كل الناس، ينزل لكلّ مستويات الناس، في أعمالهم، في سوقهم، في حياتهم {فِي النَّاسِ}، لم يقل "يمشي به إلى الناس" أي يصل إليهم ويدعوهم ثم يذهب ويتركهم، لا؛ بل هو متغلغل فيهم {يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[الأنعام ١٢٢]، "في" يسمونه حرف الوعاء أي هو متغلغل داخلهم.

{أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ}[الأنعام ١٢٢] "له" هذه فيها ملكية وتشريف؛ أعطيتكم وحيًا لكم، ثمَّ تتركونه وتُعرضون عنه!

{وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا}[الأنعام ١٢٢] و"نورًا" هنا جاءت نكرة، النكرة تأتي في اللغة لشيء غير معروف عند الناس، فأنا أستعمل أداة لغوية لكي أعرفها لك، إما أستخدم "ال" التعريف، أو أضيفها إلى شيء يُعرِّفها، أو أذكر اسمًا موصولًا يُعرِّفها، أو أشير إليها باسم إشارة، لكن إذا كان شيء ذهني لا يمكنك استيعابه أو أمر لا تعرفه تستعمل صيغة النكرة. ونحن نعلم أن النكرة في اللغة لها استعمالات كثيرة، لكن هنا "نورًا" أي نورا عظيما؛ مهما عرَّفه ربنا -سبحانه وتعالى- لنا فلن نعرف قدره، لن نعرف قدره إلا عندما يُبصِّرنا الله -تعالى- به يوم القيامة.

هناك أمثلة أخرى {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا}[النبأ ٣١] نكرة، ما قيمة هذا؟ عقولنا البشرية قاصرة مهما وصف لنا الله -سبحانه وتعالى- فلن ندرك عظمة هذا المفاز.

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا}[النبأ ٢٢-٢٣] كلها نكرة، وَصْفُ النار لن يدرك إلا – والعياذ بالله– عندما يراها الطغاة.

فهنا دلالتها أنه نور عظيم لا يوصف. {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا}[الأنعام ١٢٢] كل هذا تفخيم، كيف تسمعون منهم شبهات؟! كيف تأخذون دينكم منهم؟! كيف تتلقّون منهم الأفكار؟! كيف تزهدون في كتاب الله عز وجل؟! نحن نتعجّب فعلًا من كثرة المقروء والمسموع والموجود، والمرتبطون بكتاب الله –عز وجل– قليلون!

نرى كمية الأفكار التي تُطرح والغبش والكلام الكثير؛ وأصبح الناس تائهون وسط كلام كثير ونقاشات ومنازعات وردود، ومشكلة هجر القرآن أصبحت عند كثير من المسلمين إلا من رحم الله عز وجل.

فأنتم عندما تذهبون لدعوة الناس ستُفاجئون أنهم حريصون جدًا ويشعر أحدهم بأزمة نفسية لأنه لم يقرأ كتابًا مُعينًا أو لم يقرأ للمفكر الفلاني؛ لكنه لا يشعر بأي أزمة لكونه لا يعرف معاني سورة أو لم يقرأ سورة أولم يُصلِّ بسورة!

{وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ}[الأنعام ١٢٢] هؤلاء في عمق الظلمات – والعياذ بالله–، ودائمًا الظلمات من أول سورة في القرآن تأتي جمعًا، الذي يترك القرآن لا يبالي الله في أي أودية الضلال هلك، أودية الدنيا كثيرة وأودية الضلال كثيرة، لكن النور دائمًا واحد في القرآن، والظلمات دائمًا متعددة في القرآن، {ٱلحَمدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضَ} [الأنعام ١] أول السورة {وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ} [الأنعام ١] وأيضًا لفظ (جعل) معنا منذ بداية السورة.

{كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[الأنعام ١٢٢] فربنا يقول لك من غير قرآن لا يوجد خروج من الظلمات، ليس معك قرآن لن تخرج و إن كان معك أذكى الأذكياء وأحسن الأفكار لن تخرج من هذا الظلام {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[الأنعام ١٢٢] ولم يقل "ليس خارج منها"، الباء هذه تعني القرب؛ أي لن يقترب من الخروج فضلًا عن أن يخرج، أي لن يقارب و لن يداني الخروج فضلًا عن أن يخرج.

ووقف العلماء هنا وقالوا: عندما ذكر الله –عز وجل– لفظ {أحيينا} و{جعلنا}و{يمشي}على صيغة أفعال، فكان من المتوقَّعْ أن يقول "ليس يخرج منها" وتكون كلها أفعالًا، فلماذا جاءت بصيغة اسم

{بخارج}؟ لماذا {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[الأنعام ١٢٢]؟ بعضهم قال: {لَيْسَ بِخَارِجٍ} هذه جملة اسمية، أي لن يخرج طوال عمره، وأنّ أكابر المجرمين هؤلاء قد خُتِم على قلوبهم.

وبعضهم قال: لا، هذه أتت اسم فاعل لشيء آخر تمامًا، إنه هو الذي لا يريد أن يخرج {لَيْسَ بِخَارِجٍ }[الأنعام ١٢٢] أنا لن أخرج، هو الذي لا يريد أن يخرج، بعض المفسرين قال: {لَيْسَ بِخَارِجٍ }[الأنعام ١٢٢] كما في الآية التي بعدها {وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا}[الأنعام ١٢٦] لماذا لا تسير فيه؟ فلما تقرأ {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}[الأنعام ١٢٢] فتقول أحقًّا يختار أحدٌ بإرادته الظلام والموت؟! كيف؟! الآية التي بعدها تجيب، ختام الآية يجيب لك عليها، ما هو ختام الآية؟ {كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام ١٢٢]، عندما تقرأ تتعجب كيف لأحد أن يختار الظلام ولا يريد أن يخرج! لماذا لا يريد أن يخرج؟لأنه زُيِّن له هذا العمل.

ونحن ذكرنا أنَّ هذه القاعدة مستمرة وثابتة في القرآن كلِّه –ولا سيما في سورة الأنعام– {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ}[النساء ١١٥]، أو كما تكلمنا قبل ذلك كيف أن الله –عز وجل– يُيَسِّر للإنسان طريق الضلال ويُزين له، وذكرنا أن المعتزلة أنكروا هذا الكلام، يقولون كيف؟! كيف يفعل الله –عز وجل– ذلك؟! الجواب: لأن الإنسان اختار ذلك، الإنسان هو الذي اختار ذلك، ربنا بيَّن له {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}[الشمس ٨] {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[البلد ١٠] الله بيَّن له، فهو الذي اختار طريقه بالرغم من أنَّ الله –عز وجل– علَّمه مرة و مرتين وثلاثة، وقلنا: إنّ من أشد صيغ النفي "الكون المنفي" أن تأتي "كان" منفية، أشد صيغ النفي {وَمَا كَانَ اللَّهُ}، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[التوبة ١١٥].

فهنا طوال السورة سنجد أناسًا يطالبون بآيات، ولدينا شوط طويل جدًا في القرآن في سور كثيرة تخبرنا بإصرارهم على طلب الآيات، و قد أخذ هذا حيزًا طويلًا في مكة، أنهم يريدون آية حِسيَّة، وإصرارهم على طلب آية حسية، إلى أن ذهب إلى مجتمع أهل الكتاب وناقشهم؛ هم يقولون إن عندهم كتاب؛ فكان القرآن كتابًا أمام كتاب، فكان القرآن أقوى ومهيمنًا على الذي معهم، لكنَّ هؤلاء يريدون آية حسيَّة، طلبوا آية حسيَّة، طلبوا رؤية الملائكة، وسنرى هنا أيضًا الطلب يتطوَّر، أكابر المجرمين كان لهم طلب خاص جدًا.

ففي السورة استمرار لرغبتهم بطلب الآيات؛ والله -عز وجل- يخبرنا أن الصادق يُوفَّق، والذي جاءته الآيات وأعرض عنها يُضِلُّه الله -عز وجل-؛ لأنه أعرض عن الآيات {كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام ١٢٢] .

بعد ذلك يقول الله -عز وجل- لا تحزن عليهم والذي يحدث هذا سُنَّة قَدَرِيَّة كما أن الله -عز وجل- جعل لكل نبيٍ عدوًّا -مع استمرار سياق السورة- فقد رأينا أناسًا في أول السورة ذهبوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- يجادلونه {حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ}[الأنعام ٢٥]، وأناس يطلبون آيات، وأناس يتعنَّتون، الفجور يزداد لأن آيات القرآن قوية، وأناس مستمرون في مُحاجَّة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وأناس مستمرون في مُحاجَّة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأناس مستمرون في فتنة الناس وأصبحوا حيارى، بدأوا يضعون وحيًّا مقابلًا {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[الأنعام ١١٢] وبدأوا يزخرفونه... ثم بدأ يظهر هنا أكابر المجرمين، {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا}[الأنعام ١٢٣] قلنا أكابر المجرمين متى ظهروا؟ عندما بدأ النور يسير في الأرض، هو هنا لا يستطيع أن يصمت، لن يصمت، سينزل أمامك ويقول: {أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ}[ص ٦] كما يسيرون هم وسط الناس، نحن أيضًا ننزل ونسير وسط الناس.

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[الأنعام ١٢٣]، كما جعل الله لكل نبي عدوًّا، فهؤلاء الأعداء ليسوا على درجة واحدة من الفُجور، بل هم على درجات يتَرَقَّوْن فيها.

فهناك أعداء ومن الأعداء مجرمون ومن المجرمين أكابر المجرمين مثل: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}[الشعراء: ٣٧] و{يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}[الأعراف: ١١٢] في الشعراء والأعراف، فسحَّار أستاذ في السحر، أما ساحر مثل أستاذ مساعد، فهناك مجرمون وهناك أكابر المجرمين.

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}[الأنعام ١٢٣] تقرير سُنَّة العداء بين الحق والباطل جاء في القرآن كثيرًا وفي هذه السورة كثيرًا. إياك أن يخدعوك ويقولوا لك: المعركة ليست حقًّا وباطلًا، لا؛ بل في كل زمان لا بد أن تبحث أين الحق من الباطل؛ لأن هذه المعركة لن تنتهي إلى يوم القيامة، أي مَن يريد أن يُشخِّص الذي يحدث في العالم الآن أو في الواقع الآن أنه صراع على بترول أو صراع على مناصب، هذا كلام خاطئ.

لا بد من وجود حق وباطل، لا بد، حتى وإن كان نِسبِيًّا، حتى إن كان هناك حق نسبيٌّ وباطل نسبيٌّ.

فربنا يقول {فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}[الأنعام ١٢٣]، **كل قرية** سبحان الله! ربنا سيبعث فيها مصلحين، وهناك أناس سيحاولون أن يسيطروا.

والقرية ليس المقصود القرية الآن في مصطلحنا التي هي عكس المدينة، بالعكس القرية هنا مقصود بها مثل العاصمة، أي القرية في الآية هنا {فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}[الأنعام ١٢٣] أو {مِّن أَهلِ ٱلْقُرَىٰٓ}[٣] والرسول لماذا يأتي من أهل القرى؟ هذه مقصود بها المدينة في مصطلحنا؛ لأن عكس هذا البادية أو الأعراب يقول الله {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا }[التوبة ٩٧]، ويقول {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ}[التوبة ١٠١]، فالأعراب غير هؤلاء، إنما القرية التي هي مثل المدينة الآن، ودائمًا يأتي سياق في "قرية" وفي "مدينة"، –وهذه طبعًا تحتاج للاستقراء–، ما الفرق بين القرية والمدينة؟ مع أنهما تقريبًا بنفس المعنى وبعض العلماء كتب فروقات بينهم، الشاهد المقصود هنا ((القرية أي المدينة، أي التجمع السكني المستقر، عكس البادية.))

فربنا يقول دائمًا هم يجتمعون في قرية، لا يذهبون للأرياف، لا، بل يأتون في العاصمة، يأتون في مكان السيطرة؛ لأنهم يريدون أن يسيطروا، فيأتون في المكان الذي يستطيعون أن يسيطروا عليه، هم ليسوا حمقى ليذهبوا إلى الأطراف النائية؛ لا هم يسيطرون على المكان الذي فيه نفوذ ويُقسِّمونه، تجدهم يسيطرون عليه.

لذلك أين يتركزون في جزيرة العرب؟ في مكة، أم القرى التي يذهب الناس ويأتون إليها، وفيها رحلة الشتاء والصيف وكل الذي يأتي من اليمن والشام. إذًا أين تجد أكابر المجرمين أكثر؟ في مكة، فكلما كان للمدينة ثروات أكثر أو إمكانيات أكثر، كان أكابر المجرمين أكثر ويتركزون فيها أكثر.

وربنا يقدر دائمًا أن أغلب المصلحين يخرجون منها؛ ولذلك اصطفى الله الأنبياء من أهل القرى، وليس من الأعراب والبدو، هم أشرف الناس نسبًا، –ومَن يريد البحث في هذه المسألة؛ الفرق ما بين القرية والبادية حيث الأعراب وأيهما أفضل، شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم له مبحث رائع في هذه المسألة– وإن جنس أهل القرى أفضل من جنس أهل الأعراب.

[٣] {مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ} ذكرت مرتين [يوسف ١٠٩]-[الحشر ٧]

و جمهور أهل السنة يقول: إن جنس العرب أفضل من جنس العجم، لكن هذا لا ينفي أن هناك أفراد من العجم أفضل من أفراد من العرب، فهناك عرب فُسَّاق، وهذا الشرف يكتمل ويزداد ويثبت بالإيمان والتقوى، فلو أن أعجميًا زاد إيمانًا وتُقى على عربيٍ فهو أفضل؛ (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)[٤]

الشاهد؛ يقول الله إن القرية يجتمع فيها الاثنان:

- المصلحون الأشداء

- وأكابر المجرمين، ليس فقط المجرمون بل أكابرهم، يجتمعون في العواصم وأماكن تمركز الثروات -كما كان الوضع في مكة- والصدام دائمًا يكون في مثل هذه الأماكن {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣] لم يقل: أكابر المجرمين، ولم يقل: "وكذلك جعلنا في كل قرية مجرمين صغارًا ومجرمين كبارًا"، بل التركيز كله على أكابر المجرمين، وكلمة {مُجْرِمِيهَا} الضمير فيها عائدٌ على القرية، أي أكابر مجرمي القرية فكأنها من شدة استقرارهم فيها صارت ملكهم، صاروا يتعاملون مع القرية أنها ملكهم وهم المسيطرون عليها.

وهم دائمًا خائفون، من ماذا؟، -حجة السحرة أو حجة فرعون-{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ}[الأعراف ١١٠] أي: هذه الأرض أرضكم ملككم فكيف يخرجكم منها!

{أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣] وأكابر المجرمين تدل على ماذا؟ تدل على وجود مجرمين صغار، إذًا هناك مجرمون كبار يُضِلون المجرمين الصغار فيُضِلُّ المجرمون الصغار بقيَّة الناس، ودائمًا أكابر المجرمين لا يظهرون للعامة، وإنما هم يختفون ويستترون، وأين هم؟ في العاصمة، في كل قرية، في أماكن الثروات، وأكابر المجرمين يضلون المجرمين الصغار، لذلك قال الله: إن العقاب عندما ينزل سيصيب الذين أجرموا، سيصيب المجرمين كلهم وليس الأكابر فقط؛ لأن المجرمين الصغار تبعوا الأكابر، {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

---

[٤] [عن من سمع النبي ﷺ:] يا أيُّها النّاسُ ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ ألا لا فضلَ لِعَربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعَجميٍّ على عربيٍّ ولا لِأحمرَ على أسودَ ولا لِأسودَ على أحمرَ إلاَّ بالتَّقوى أبلَّغتُ قالوا بلَّغَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ أيُّ يومٍ هذا قالوا يومٌ حرامٌ قالَ أيُّ شهرٍ هذا قالوا شهرٌ حرامٌ قالَ أيُّ بلدٍ هذا قالوا بلدٌ حرامٌ قالَ إنَّ اللَّهَ قد حرَّمَ بينَكم دماءَكم وأموالَكم - قالَ ولا أدري قالَ أو أعراضَكم أم لا - كحُرمةِ يومِكم هذا في شهرِكم هذا في بلدِكم هذا أبلَّغتُ قالوا بلَّغَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ قالَ ليبلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ

الوادعي (ت ١٤٢٢)، الصحيح المسند ١٥٣٦ • صحيح

صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}[الأنعام ١٢٤] لم يقل سيصيب أكابر المجرمين فقط، قال: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}[الأنعام ١٢٤].

ما معنى المجرم أصلًا؟ "الجرم" اختلف أهل اللغة في أصله، قيل هو القطع، ولذلك يقولون: "لا جرم" أي "قطعًا" فالجرم هو القطع، فيكون تعريف **المجرم**: الذي يقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا اسمه مجرم، لأن الله أراد أن يصل شرعه ووحيه إلى الناس، فعندما أتى شخص بالنور وأراد أن يمشي به في الناس أتى هذا المجرم يريد قطع هذا النور.

مرة أخرى؛ الآية السابقة {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأنعام ١٢٢] -أسأل الله أن يحيينا ويحييكم- المجرم وجد أن هذا النور سيصل إلى الناس فأراد أن يقطع هذا النور -الوحي- فماذا يفعل؟ هناك وسائل كثيرة، يمنع هذا ويأسر هذا.. إلخ، المهم ألا يصل هذا النور للناس، هذا اسمه مجرم.

لذلك كل ما أمر الله به أن يوصل المجرم يريد أن يقطعه، ولأن أكابر المجرمين دائمًا مستترون؛ يحقّقون هذا -القطع- بالمكر: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣] الأكابر يخطّطون والصغار ينفذون خططهم والناس يُخدعون، {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا **لِيَمْكُرُوا** فِيهَا}[الأنعام ١٢٣] المكر: هو الوصول إلى ما تريد بحيلة وخفاء ليس بالعلن، لكن عندما يمكر بهم الله -سبحانه وتعالى- يأتيهم من حيث لا يشعرون، لذلك يقول الله {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[الأنعام ١٢٣]، كما أتت {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[القصص ١١] في سورة القصص؛ هم لم يشعروا أن هلاكهم سيكون على يد مَن يُرَبُّونه، وهذا هو مكر الله -عز وجل- عندما يمكر بالظالمين؛ يجعلهم يحدّون السكين التي سيُذبحون بها، ويهلكون أنفسهم بأيديهم وهم لا يشعرون.

إذًا عندما جاءت آية {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[الأنعام ١٢٢] قبل آية {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا}[الأنعام ١٢٣] فما دور أهل الإيمان؟ ما الذي يجب عليهم فعله؟ يجب عليهم أن يمشوا في الناس بالنور، لماذا؟ لكي لا ينخدع الناس بالمكر، و لكي يفسدوا على المجرمين مكرهم، فيصلون ما أراد المجرمون قطعه، كما قال ربنا لسيدنا موسى: {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ}[طه ٢٤] هناك طاغية لا بد أن تذهب إليه، لا ينبغي أن يُترك، يريد الله -سبحانه وتعالى- أن يأخذ فرعون {فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ}[النازعات ٢٥] فقال الله لسيدنا

موسى: اذهب إليه فعظه وأنذره قبل أن آخذه؛ فهذا الطاغية لن يُترك، و"لن يُترك" تعني أن الله -عز وجل- سيُرسِل له أناسًا أو أنه سيُعذِّب {وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا}[التوبة ٥٢] وهذا عائد لترتيب الله له {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[الأنعام ١٢٣] إذًا لا بد لأهل الإيمان أن يفضحوا هذا المكر، وهذا المكر لن يُفضح إلا بالنور الذي تمشي به في الناس، ولكي يُفضح لا بد أن تمشي به في الناس؛ في وسط الناس لا مجرد كلمتين في التلفاز وانتهى الأمر لا، لا بد أن يكون في الناس، فحتى يُرَدَّ مكر أهل الباطل لا بد من الانتشار في الناس.

لكن يُطَمئِن الله -عز وجل- أهل الإيمان {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[الأنعام ١٢٣] دائمًا ربنا -سبحانه وتعالى- يُسلط جند الغباء على أهل الباطل، مثل فرعون؛ ففرعون هو الذي ربَّى سيدنا موسى وفرعون هو الذي جمع السحرة ليؤمنوا فبدلًا من أن يذهب سيدنا موسى لكل ساحر يدعوه للإيمان، فرعون -جزاه الله شرًا- وفّر هذه المهمة على سدنا موسى.

والجنود -جنود فرعون- نريد أن نتخلص منهم؛ لأن فرعون قائم بجنوده، الله -عز وجل- هو الحي القيوم أي الله -عز وجل- لا يقوم بشيء بل يُقيم كل شيء، فأي ملك لكي يقوم يحتاج إلى مُقوِّمات -وهذا إن شاء الله سنشرحه في سورة النازعات- كل ملك يحتاج إلى مقومات تقيمه، لكن الله -عز وجل- لا يحتاج، لذلك ربنا -سبحانه وتعالى- يُقدِّر لحظة يقول فيها {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}[غافر ١٦] ولا يكون هناك أحد حتى الملائكة، ثم يُحييهم الله عز وجل مرة أخرى.

فالجنود هم الذين يقيمون ملك فرعون، نريد أن نتخلص منهم، كيف؟ يتكفل فرعون بهذا، فهو الذي يجمعهم كلهم ويقودهم بنفسه ليذهب بهم إلى البحر، وكما كان يَقدُم قومه في الدنيا سيَقدُمُهم يوم القيامة {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ}[هود ٩٨] هو الذي ذهب بهم إلى البحر، أي جمعهم وقادهم بنفسه ورمى بهم في البحر. {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}[الذاريات ٤٠] فرعون قام بثلاثة أعمال جليلة جدًا جدًا؛ ربى سيدنا موسى، وجمع السحرة، وهو الذي ألقى بجنوده في البحر.

فلو أنه عندما رأى البحر ينشق أبى أن يدخل لم يكن ليدخله أحد، لكنهم لم يتجرءوا إلا بعد أن دخل فرعون -كما ذكر الإمام الطبري وغيره.

فالشاهد {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ }[الأنعام ١٢٣] لكنهم دائمًا {وَمَا يَشعُرُونَ}[الأنعام ١٢٣]، {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}[الحشر ٢] مهما ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله سيأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا.

إذًا المجرمون أو الأعداء من أول السورة يطلبون آيةً حسية، لكن هنا الطلب مختلف تمامًا لأن هؤلاء ليسوا أي مجرمين عاديين هؤلاء أكابر المجرمين، فنحن هنا نتكلم عن الكِبر، وهؤلاء طلبوا طلبًا غريبًا جدا، ماذا طلبوا؟ {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}[الأنعام ١٢٤] كثير من الناس يمنعه من دخول الإسلام أو الالتزام الخوف من تغيير أوضاعه؛ هو في وضع معين يخاف أن يتغير، كأن يكون في مجموعة من أصدقائه وهو يقودهم وهو قائد المزاح وهو صاحب النكات... ؛ فيخاف أن يهزأ منه أصحابه هؤلاء.

كما كان أبو طالب عم النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول:

وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

هو **يخاف ملامة الناس** أو سبهم له، يخاف على وضعه وماذا سيقولون عنه

وكما ذكر الطبري عن قتادة إن أول جريمة قتل لما حدثت قال–قابيل– لأخيه: "تمشي في الناس فيقولون: تُقُبِّل منك ولم يُتَقبَّل مني! **والله لأقتلنك**".

أي أن كل المسألة أنه يخاف أن يُقال عنه كذا؛ هذا أمر نفسي عظيم، لا يستطيع أن يضغط على نفسه كبرًا! {أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}[الأنعام ١٢٣]

هو في هذا الوضع –والعياذ بالله– ينازع الله –عز وجل – في ربوبيته، وربنا قال في الحديث القدسي: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدًا منهما عذبته)[٥] وأكابر المجرمين أولئك يريدون أن يكونوا في موضع التشريع؛ فيَفرِض على الناس، لكن لا يُفرَض عليه شيئًا، هو الذي يُغَيِّر ويُبدِّل، هو الذي يرفع ويخفض! لذلك وصل بهذا الساذج من شدة الكبر أنه يقول لسيدنا إبراهيم: {قَالَ أَنَا أُحْيِي

[٥] يقولُ اللهُ تعالى: العظَمةُ إزاري والكبرياءُ ردائي فمن نازعني واحدًا منهما عذبتُه
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، مجموع الفتاوى ١٣٩/٦ • صحيح

وَأُمِيتُ}[البقرة ٢٥٨] هذه الكلمة تُشخِّص لك نفوسهم، هو يريد أن يصل إلى أن يظن بنفسه هذا، إنه ليس فقط يرزق ويمنع لا، وإنما كذلك يحيي و يميت!

يريد أن يشعر أنه ليس فقط يسيطر على أرزاق الناس بل وفوق ذلك على أرواحهم، يقول لسيدنا إبراهيم: أنا أسيطر على أرواح الناس! فكأنه يهزأ ويقول تأتيني لتحدثني وأنا أحيي وأميت؟! هذا الشخص ((**بعوضة**)) أهلكته!

هناك أناس يكذبون الكذبة ويصدقونها؛ في قصة ماشطة بنت فرعون وهي تمشِّط بنت فرعون، فسقط المشط فالماشطة تقول: بسم الله، وتأخذ المشط. فابنة فرعون تقول سائلة: أبي؟ لسان حال المشاطة: ومَن أبوك؟! أقول: بسم الله، تقولين: أبوك؟! ابنة فرعون تصدق الكذبة، ترد عليها الماشطة: بل ربي ورب أبيك. تهددها بأن تخبر أباها، أخبريه، وما الضير؟

النمرود كذلك صدق نفسه، فسيدنا إبراهيم تركه بعد أن قال له: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[البقرة ٢٥٨] لأن هذا شخص معتوه صدق نفسه.

هؤلاء بسبب كبرهم يخافون أن يلتزموا بتعاليم الدين، فتأمره حينها بالحدود والشرع؛فيكون لسان حاله أتريدني أن أكون واحدًا من الناس يقف معهم في صف واحد ليصلي؟! وأذهب إلى عالم أستفتيه فيقول لي: هذا حلال فافعله وهذا حرام فاجتنبه؟! وإن كنت حاكم فاسد أُخلع من منصبي، لا؛ لن أقبل هذا!!! هو لا يريد شيئا من هذا!

دعنا نبحث عن حل آخر؟! لن أؤمن لك حتى أكون نبيًّا مثلك ويأتيني وحي مثلك، وأقول مثلك: افعلوا ولا تفعلوا وآمر وأنهى، سأؤمن لكن على هذا الشرط!!!

وهذه **نقطة في غاية الخطورة** إن أسقطناها علينا، كثير مِنّا يشترط على الله -عز وجل- فيمتنع عن فعل أشياء حتى يتحقق الشرط، لسان حاله؛ يارب افعل لي كذا حتى أفعل كذا، وإن لم يحدث له ما يريد يعاتب ربه، فهو **يعبد الله على شرط وليس على حرف**.

مثل أبي عامر الذي كان راهبًا ثم صار فاسقًا، كان يعبد الله لينال النبوة، فلما اصطفى الله -عز وجل- النبي -صلى الله عليه وسلم- أصبح أبا عامر الفاسق، أبو عامر الراهب كان يترهبن ويعلم أن هذا زمان آخر نبي وكان يرجو أن يكون هو، **فالعبادة على شرط خطر جدا**.

أما العبادة على حرف؛ هذا مذبذب أصلًا؛ عبادته ضائعة يصلي ركعتين وانتهى الأمر، لكن **مَن يعبد على شرط هذا يجتهد هذا أخطر، عندما يقع فإنه يقع من أعلى مكان فتنكسر رقبته.**

إبليس كان هكذا؛ لأنه كان يعبد على شرط، لسان حاله؛ أنا أعبد وأعبد وفي النهاية تصطفي آدم خليفة! لا، لن أسجد، والعياذ بالله.

هناك مَن يعبد على شرط؛ يارب أنا سألتزم لكن تعطيني كذا وتفعل لي كذا، أريد أن أكون ذو شأن في الدين، ليس مثلي مثل الناس.

وهذه خطورة الفارق بين العبودية والإنجاز

-أسأل الله أن يُقدِّر لي وأشرح درسًا في الفارق بين العبودية والإنجاز-، الفارق بين مَن يدخل الطريق وهو يعلم أنه عبد، ومَن يدخل لتحقيق إنجاز ما، الذي يدخل تحقيقًا للإنجاز فهو دائم الاتِّهام لله سبحانه وتعالى، وكأنَّه يقول لِمَ فعلتَ هذا ولم تفعل ذاك؟ لِمَ لم أصبح مشهورًا؟ لِمَ أعطيت فلانًا ولم تعطني؟ لِمَ أوذيت؟ فهو دائم الاتِّهام لله -والعياذ بالله-، لذلك حين تقع في بلاء أول ما يُستحب قوله؛ أن تُنزِّه الله عن هذا التفكير، سيدنا يونس في بطن الحوت قال: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[الأنبياء ٨٧]، أنا الذي ظلمت نفسي، أنا ظالم أصلًا وعريق في الظلم، سبحانك؛ أنزهك من أن تكون ظلمتني.

تجد من يلتزم فيكون لسان حاله لو أعطاني الله سأُكمل، لو لم يعطني فلن أكمل، أو يستمر في العبادة منتظرًا المكافأة.

حين أتكلم مع أحد الإخوة وأسأله: لِمَ صرتَ مقصِّرًا في الصلاة أو طلب العلم والدعوة؟ فيقول: لأنني فاشل! فأسأله: فيم أنت فاشل؟! أنا أقول لك: قم لنصلي، فإذا توضأنا و دخلنا للصلاة وأنهيناها هكذا نحن نجحنا، هل تنتظر بعد أن صليت أن تصبح شيخًا؟!

أقول له تعال لنحضر درسًا، فحضرنا الدرس، وحفَّتنا الملائكةُ، وذُكر اسمنا، قوموا مغفورًا لكم، فلان فيهم؟، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم؛ هذا نجاح.

لماذا نفكر بفكرة "أنا ملتزم منذ خمس سنوات ولم أصبح شيئًا!"

أقول؛ **الفروقات دائما بينها شعرة**، هناك فارق بين علو الهمة للعلو في الأرض وبين علوِّها في نصرة الحق أو القرب من الله –عزوجل– {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}[الإسراء ٥٧]، الله يعلم من يريد أن يتقرب أكثر {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}[الإسراء ٥٧] هناك من يريد أن يتقرب إلى الله، وهناك من يريد أن يكون أعلى في الأرض.

لذلك يقول الله {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤] "الجعل" مرة أخرى، الله أعلم من يستحق الرسالة، هذه الرسالة هبة من الله –عز وجل– واصطفاء من الله –عز وجل–

لذلك في سورة القصص عندما قال الله: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[القصص ٨٣]، وفي نفس السورة قال: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}[القصص ٦٨] وفي نفس السورة يقول الله –عز وجل– {وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ}[القصص ٨٦]!. ولو استحضرت معي قول أمِّنا عائشة –رضي الله عنها– عندما قالت: "والله لشأني في نفسي أحقر من أن ينزل فِيَّ قرآن" في حادثة الإفك؛ وإنما كان غاية أملها أن يرى النبي –صلى الله عليه وسلم– رؤيا يبرئها بها، عندما كان هذا شأنها في نفسها نزل فيها قرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

فكان عقاب أكابر المجرمين الصَّغَارُ، أن تعبد الله على شرط هذا في منتهى الخطورة.

والعجيب في سياق الآية أنهم يقولون: {قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}[الأنعام ١٢٤] فهم يعترفون أنَّه رسول الله، كما قال اليهود: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}[النساء ١٥٧] فهل قالوا هذا الكلام نصًا؟ الراجح أن القرآن يَقُصُّ، وليس هذا نص الكلام الذي قيل وحدث. فعندما يقول ربنا –عز وجل– هم قالوا كذا؛ فالمقصود أنهم كانوا يعلمون ذلك، سواء قالوه أو أسرُّوه في أنفسهم، هم يعلمون أن هذا رسول الله.

فسياق الآية يقول إنهم لم يقولوا فقط "لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي محمد"، لا، بل قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}[الأنعام ١٢٤] و هناك قول آخر –وهو الأقوى– يقولون: حتى نؤمن لك فأتنا بآيات مثل العصا والناقة ...إلخ، آيات كالتي جاء بها الرسل قبلك. وإن كان القول الأول ذكره الإمام الطبري ولكنَّ سياق الآيات –أنهم يطلبون آية حسية من أول السورة– يرجح القول الثاني وهذا ما اختاره ابن كثير.

والقول الثاني في {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤] أنّهم أرادوا أن يؤتى كل أحد منهم رسالة وهذا أحد تفسيرات قول الله -عز وجل-: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً}[المدثر ٥٢] كل أحد منهم يريد أن يُوحى إليه مثل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقول: لن أؤمن، لذلك أبو جهل عندما سئل لماذا لم تؤمن، فقال: "كنا وبنو عبد مناف كفَرَسَي رهان، أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا" _أطعموا الناس، فقلنا: نطعم الناس، بدأوا يسقون الناس، قلنا: الشرف أهم من المال، فسقينا، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ)[٦]، **حبُّ الشرف يفسد الدين كالمال تمامًا بل وأكثر**. قالوا: إنفاق المال أهون علينا مقابل أن نحصل على الشرف_ "فقالوا: منا نبيٌّ يأتيه وحي من السماء، فأنَّى ندرك ذلك؟! والله لنقاتلنَّه" كيف نحصل على ذلك؟ بنو عبد مناف قالوا: منَّا نبيٌّ، ونحن في سباق دائم معهم فكيف نحصل على شرف ((منَّا نبيٌّ)).

فالشاهد؛{قَالُوا **لَن** نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}[الأنعام ١٢٤] "لن" هنا قاطعة.

ومن اللطائف في المصحف لفظ "الله" جاء مرتين متعاقبتين {قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤].

{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤] هذه الآية فيها ردٌّ على الكفَّار، لكنَّها من المفترض أن تؤلم قلبك؛ عندما تتأمَّل، الله أعلم حيث يجعل القيام، والله أعلم حيث يجعل الذِّكر، والله أعلم حيث يجعل الصيام، والله أعلم حيث يجعل الخُلُق الحسن، والله أعلم حيث يجعل الخشوع والخضوع، فعندما تكون مقصِّرًا ربما تكون لا تستحق! {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤]، فالله أعلم حيث يجعل هذا الخير وهذا النور، {وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}[الرعد ١٧]، مَن الذين يستخدمهم الله في نفع الناس ويجعلهم يمكثون في الأرض؟ هذا كلُّه اصطفاء من الله.

تتأمل في حياة الأئمَّة، وكيف اصطفاهم الله ونشر علمهم، خاصةً عندما تقرأ في سِيَر المفسِّرين السَّلَف، كالحسن البصري أو الشَّعبي، وغيرهم من الأئمة، فأغلبهم كانوا موالي؛ آباؤهم وأمَّهاتهم كانوا سَبْيًا؛ فالمسلمون حاربوا وأخذوا السَّبي؛ فأصبح أبوه أو أمه عبيدًا، أمه أمة مثلًا عند شخص وأبوه مولى عند

[٦] [عن كعب بن مالك:] ما ذئبانِ جائعانِ أُرسلا في غنمٍ، بأفسدَ لها من حرصِ المرءِ على المالِ والشرفِ، لدينه
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٣٧٦ • حسن صحيح • أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (١٥٧٩٤)

آخر، فأنجبوه وهو في بيئة المسلمين، فلو كان قُدِّر له أن يكمل في أرض الكفر لكان سيبقى كافرًا، فيُقدِّر الله –عز وجل– أن يحاربهم المسلمون، فتصبح أمُّ الحسن مولاة عند أم سلمة زوجة النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويأتي ابنها –الحسن البصري– من سَبي، والشعبي كذلك جاء من سبي، تخيل؟ ويصبح عالم المسلمين، والأمراء يجلسون إليه –سبحان الله– {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤] فهذا اصطفاء.

مثلًا سيدنا سلمان، كيف جاء؟ عندما يقرأ المرء هذه الآية {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤] يبكي على نفسه، فعلًا الصدق عجيب. الموضوع ليس ذكاءً ولا قوةً ولا بذلًا (كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته)[٧]، هذه الآية تجعل المرء يبكي على نفسه. أنت صَفِّ نفسك.

والعجيب أن هذه الآية جاءت في الكِبْر؛ قد تُغلِق فتح الله عليك بسبب الكِبْر الذي بداخلك، لأنَّك لست خاضعًا، ولا صادقًا، تريد أشياء أخرى، {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا}[القصص ٨٣]، أنت لم تُصفِّ ما بداخلك، لست قويًا في صدقك، بطيء، فلا تستطيع الوصول... وقلنا الوصول هو القرب وليس الوصول هو الإنجاز، الوصول أن تشعر أنك أكثر قربًا من الله {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}[الإسراء ٥٧]، الأمر ليس أن تكون ذكيًّا أو مُفَوَّهًا أو متمكنًا في الكتابة. أحيانًا نرى النقاشات والكلام والتنميق، وليس هذا ما يُنجي.

فقد قال سفيان الثوري قولًا: "وطلب الحديث ليس من عُدَّة الموت" فعلق الذَّهبي قائلا: "صدق والله" يعلِّق على كلمة الثوري... لأن غالب هذا العلم يريد طالبه الحصول على سند عالٍ، وآخر يريد أن يروي عن رواة لم يُروَ عنهم من قبل، وآخر يريد أن يكون أستاذه أعلى من غيره. فيقول: "ومتى خلاصك إلى

---

[٧] [عن أبي ذر الغفاري:] عَنِ النبيِّ ﷺ، فِيما رَوى عَنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى أَنَّهُ قالَ: يا عِبادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظالَمُوا، يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلّا مَن هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جائِعٌ، إِلّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ عارٍ، إِلّا مَن كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ، وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يا عِبادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أَتْقى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكُمْ، ما زادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي إِنَّما هي أَعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاها، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إِلّا نَفْسَهُ.

وفي روايةٍ: إِنِّي حَرَّمْتُ على نَفْسِي الظُّلْمَ وعلى عِبادِي، فلا تَظالَمُوا.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٥٧٧ • [صحيح]

إخلاصك"، الإمام الذهبي هنا يتكلم عن طلاب علم الحديث؛ أشرف الناس، حتى هذا العلم قد يشوبه الكبر، فلا يعني أن تكون ملازمًا للمسجد أنه لن يشوبك شيء منه.

{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}[الأنعام ١٢٤] كلُّهم وليس الأكابر فقط، {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ}[الأنعام ١٢٤] عوقبوا بنقيض القصد، هم أكابر، ويريدون أن يكونوا كبارًا، ويريدون أن يحافظوا على مراكزهم، فيصيبهم صَغَار {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}[الأنعام ١٢٤] ، والإصابة أي التي لا تتخطّاهم، تصيبهم تحديدا {سَيُصِيبُ}، الإصابة فيها أيضًا معنى البلوغ والعمق ، تبلغ إلى داخلهم. {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ}[الأنعام ١٢٤] تتبع الآية التي قبلها، التي يمكرون فيها {بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}[الأنعام ١٢٤].

يقول الإمام مجاهد: "مكر الأكابر هنا أنّهم كانوا يرسلون أناسًا إلى أطراف مكة ليمنعوا الناس من الدخول لسماع النبي –صلى الله عليه وسلم–"، فهذا الأثر يبيّن لك فعلًا ما معنى القطع؟ المجرم يريد أن يقطع وصول النُّور للنّاس، أو وصول النّاس إلى النّور. وهذه الفكرة ظهرت كاملة في سورة الحجر، إقامة الحجر حول الدعوة؛ لذلك سورة الحجر التي حاولوا أن يقيموا فيها الحجر حول الدعوة، جاء الأمر الأخير فيها {فَاصْدَعْ}[الحجر ٩٤] لابد أن تكسر هذا الحجر الذي صنعوه حول الدعوة، فلا تتركهم يحيطون بهذه الدعوة، لا بد أن تكون نورًا يمشي في الناس.

{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ}[الأنعام ١٢٥] هذه الآية هامّة جدًا، وما معنى شرح الصّدر وقد تكرّر كثيرًا، وتوضيح علاقة المعنى اللّغوي بالمعنى الشّرعي؛ كلّ هذا سنذكره في الدّرس القادم بإذن الله عزّ وجلّ.

نكتفي بهذا القدر، سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.